دلالات مصطلح البلاغة العربية والأسلوبية الحديثة في النّظرية والإجراء دراسة في المختلف والمؤتلف

د. فتحي «محمد رفيق» أبو مراد ، جامعة البلقاء التطبيقية ، الأردن
د. افتخار سليم محي الدين ، جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية

ملخّص

تحاول هذه الدراسة أن تستكنه أوجه الاختلاف والشبه الجوهرية بتن دلالات مصطلح البلاغة العربية، والأسلوبية الحديثة، وتحديد الخصائص المائزة لكل منهما، ومن ثم بيان ملامح الإجراء الأسلوبي وحدوده، وملامح الإجراء البلاغيً وحدوده كذلك ، في مقاربة كلٍ منهما إلي الأدب.

وقد لحظت الِدراسة أنّ ثمة بعض الاختلافات بتن الأسلوبية والبلاغة تنعكس آثارها في المقاربة الإجرائية لكل منهما. ويمكن حصر هذه الاختلافات في محاور خمسة هي: المفهوم، والموضوع: المعالم والحدود، والرؤية والمنهج، والنص، والمبدع. ومع ذلك فثمة أوجه ائتلاف والتقاء كبيرة، تتقاطع بها الأسلوبية والبلاغة، يمكن حصرها في محاور خمسة أيضاً، هي: لغة الأدب، وتعدد كيفيات القول الواحد، والإقناع والإمتاع ، والتماسك النصي، والاهتمام بالمتلقي.

Abstract

The study tries to investigate the substantial differences and similarities between stylistics and rhetoric and identify their characteristics. Afterwards, it clarifies the features and limits of the stylistic and rhetorical processes and comparing each one of them with literature. It also notices that there are some differences between the stylistics and rhetoric which is reflected in the procedural treatment of each one of them. These differences can be listed in five areas: the concept and subject, marks and limits, vision and approach, text, and creative. Nevertheless, there are areas of agreement and coherence which can also be listed in five areas: language of literature, various forms of articulating the same speech, convincing and enjoyment, textual cohesion, and care about recipient. Lastly, the study tackles some text types and tries to analyze them rhetorically and stylistically, excluding this to two rhetorical forms: the simile and the metaphor. It notices their merging with the stylistic deviation and how they benefited of some modern linguistic qualities.

مقدمـــــة :

المتأمل في نقدنا الحديث يلحـــــــظ تعدد الدراسات والبحوث التي تناولت البلاغة والأسلوبية، سواء على مستوى النظرية, أم على مستوى التطبيق. غير أن هذه الدراسة ليس في نيتها إعادة قراءة مجالات البحث البلاغي أو الأسلوبي وأبعادهما. فثمة دراسات قيّمة عدّة نهضت بهذه المهمة، بل تحاول تسليط الضوء على المختلف والمؤتلـــــــف في دلالات مصطلح البلاغة العربية والأسلوبية الحديثة.

لا شك أنّ ثمة علاقة وثيقة بين البلاغة والأسلوبية؛ فالبلاغة هي الجذر الذي نمت عليه فروع الأسلوبية المختلفة، والأسلوبية بدورها هي الوريث الشرعي للبلاغة. ورغم هذا التقاطع الكبير إلاّ أن البلاغة تظل تتمايز عن الأسلوبية، وكذا الأسلوبية تظل بدورها تتمايز عن البلاغة.

من هنا ستحاول الدراسة أنْ ترصد أوجه العلاقة الدقيقـــــة والجوهرية بين البلاغة والأسلوبية: اختلافاً وائتلافاً، على مستــــوى النظرية والإجراء، كما تؤديها الدراسات البلاغية العربية، والأسلوبية الحديثة المختلفة, وتحاول أن تبوّب هذه الأوجه ضمن محاور كليّة شاملة، وتحت عناوين مختصرة، تسهيلاً للدراسة والتناول حســــب. فتضيء بذلك تلك المساحات المتقاطعة بين البلاغة العربية، والأسلوبية الحديثة، كمــــا تضيء تلك الآفاق التي ترومها، أو تستشرفها كلّ منهما على حدة، أو تنفرد بها إحداهما عن أختها، وتظل السمة المائزة لها والدالّة عليها, وتمييز ملامح كلٍّ منهمــــا عند مقاربة نصّ أدبي معين ، وبالتالي بلورة الرؤية النقدية التي يتبناها الناقد في مقاربة نصّه, فإن لانت لــــه هذه وتلك اتضح له أيّ طريق سيسلك في مقاربة النص، وتحددت له معالم منهجه.

أولاً: دراسة في المختلف بين البلاغة والأسلوبية :

1 - المفهــــوم :

يشكّل المفهوم بؤرة خلاف بين البحث الأسلوبي والبحث البلاغي؛ فالأول يتأسس حول مفهوم مركب يشكّل الأسلوب أحد طرفيه، والأسلوبية طرفه الآخــــر ، ورغم تعدد تعريفات الأسلوب وتنوّعها [1]، لكنه, على أية حال, يظل يدور حــــول كيفية استعمال اللغة استعمالاً خاصاً [2]، بحيث يكون هذا الاستعمال الخاص صفة مائزة لكتاب معين أو مدرسة فنية أو فترة زمنية أو جنس أدبي ما.

المتأمل في البحث الأسلوبي، يلحظ أنه أمام مفهوم مزدوج يتشكّل من ثنائية الأسلوب والأسلوبية. وهما مفهومان مختلفان يضمان ثنائية المبــــدع والمتلقي، وبين هذين الطرفين يتأسس النص، وتتأسس خصائصه وفرادته. فالأسلوب هو اختيار المبــــدع، والأسلوبية هي استرجاع المتلقي لهذا الاختيار وقراءته طبقاً لأفق توقع المتلقي نفســه[3]، ولا يمكن أن نتصوّر أدب دون أسلوب. فالأسلوب صفة لازمة لكل خطاب، وخاصة الخطـــــاب الأدبي، لكن هذا الأسلوب يتدرّج في منازل الجودة من أديب إلى آخر, ومن خطاب إلى خطــاب حسب ما يؤتى من

إمكانات فنية ومقدرة على استعمال اللغة استعمالاً خاصاً مؤثراً. إذن فالأسلوب هو طريقة المبدع في استعمال اللغة لتجسيد فكره وشعوره ورؤيته للآخـــــر، والأسلوب يمارسه المبدع، و هو مجال التفرّد والتميّز، لأنه مزيج من الجمال الفني الذي يستطيع نقل الواقع وتصويره، كما أنه القادر على التعبير عن الرؤية العميقة للعالم.

آية ذلك كله أن الأسلوب خاصية للمرسِل بشكل عــــام، وذلك عندما تتحول هذه الخاصية إلى وسيلة بيانية للإرسال تتحقق على المستوى الفردي أو الجماعي، أو على مستوى مرحلة معينة للفرد أو للعصر. وطالما أن الأسلوب يتحقق حال تحقق المرسَل بشكل عام، أو الأدب بشكل خاص، فإن الأسلوبية تتأسس عند لحظة التلقّي، فالأسلـــــوب يمارسه المرسِل، والأسلوبية يمارسها المستقبل حينما يشرع في استرجاع أسلوب المرسِل وتحليل عناصره اللغوية لاستكناه أسراره الجمالية والتأثيرية؛ فالأسلوبية هي ميـــــدان التعامل مع الأسلوب خاصة، والتعبير اللساني عامة. وتصبح بذلك الأسلوبية تتبنى حقل التعبير كله. ولم تعد هناك ظاهرة لسانية أو أدبية إلاّ وتستطيع باسم بعض تعريفات الأسلوب أن تدّعي لنفسها الحق بالأسلوبية.

أما البحث البلاغي فيتجاهـــل دور المبدع في حريـــة الاختيار، ودور المتلقي في حرية الاسترجاع، ولا يتحقق النص عنده بين هذين الطرفين، إنمـــــا يتحقق طبقاً لجملة من التصورات والمفاهيم التقنية المعيارية الثابتة والموضوعة سلفاً، والتي بدورها تؤدي إلى الكتابة الجيدة، وينحصر دور المبدع في مدى قدرته على اختيار ما يطابق هذه المعايير, ودور المتلقي في تأكيد هذه المطابقة, وسرد براهينها وكشف قواعدها وأبعادها.

وإذا كان البحث الأسلوبي يتناول طريقة استخدام اللغة عبر المبدع (أي الأسلوب)، وطريقة فهم هذا الاستخدام عبر المتلقي (أي الأسلوبية)، فإن البحث البلاغي يتحلل من هذا المفهوم المركب، ويتأسس على جملة قواعد من شأنها أن تؤدي إلى فن القول الجيد, بصرف النظر عن أسلوب المبدع واسترجاع المتلقي. وإنما غاية الأمر تكمن في مـــــدى إدراك قواعد الجودة الموضوعة سلفاً، ومدى القدرة على تطبيقها, ثم استرجاعها في عملية التلقّي. غير أن المقصود بالجودة قد يُفهم على أكثر من وجه؛ فمن ذلك: أنه يتناول الجانب الأخلاقي، فتصبح الجودة ملاءمة الموقف والمقام ومطابقة مقتضى الحال، وقد يتناول قضية الإقنـــــاع حينما تصبح غاية استخدام الشكل البلاغي هي: إقناع المتلقي.

وأخيراً, قد تصبح الجودة: توفير القواعـــــد اللازمة لتحقيق شرط الحسن والجمال، وهذا الهدف غلب عليه طابع الدراسة النحوية وتحقيق صحة الكلام؛ فمفهوم البحث البلاغي – كما يراه السكّاكي- يتأسس حول «بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصــــاص بتوفية خواص التركيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجــــاز والكناية على وجهها»[4]. فهذا التعريف يعيد التأكيد على أهمية القواعد الموضوعة سلفاً لإنتاج الكتابة الجيدة، ويؤشر على العلوم السابقة التي تأسست عليها البلاغة العربية؛ فتوفية خواص التركيب حقهـــا، يعني بحث علم المعاني، وإيراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها يعني بحث علمي البيان والبديع.

إذن، فالمفهوم البلاغي لا يراعي الخصائص الأسلوبية التي يؤسسهـــا المبدع أو المتلقي

في النص، بل يراعي الفن البلاغي المقنن، سواء كان مصدره علم المعاني أو علم البيان أو علم البديع، وغايته الأخيرة تتلخص في (فن الإقناع)، لذا على المنشئ أن يلتفت إلى مستويين[5] عند الإنشاء: الأول مستوى قبول الكلام وهو الحد الأدنى من البلاغة، وذلك عندما يطلب من الكلام أن يكون صحيحاً وخالياً من الأخطاء النحوية واللغوية كي يكون قادراً على الإعراب عما يعتمل في نفس المنشئ، وهنا تبرز جملة من القواعد النحوية والمنطقية التي تقيّد حرية المنشئ في الحدس والاختيار، كما تقيّد حرية المتلقّي في التأويل والاسترجاع. والآخر مستوى استحسان الكلام، عندما يطلب من المنشئ مجاراة المثال البلاغي المتعالي على الزمن، وهو لفظ القرآن الكريم الذي لا تحيط قدرة البشر بفهمه، فضلاً عن مجاراته.

هكذا، يتضح أن البحث البلاغي يقوم على مفاهيم ومعايير مقننة وثابتة تبرز الشكـل البلاغي بصورة حادة وصارخة في المنجز الأدبي، ممـــــا يعني تضاؤل دور المبـــدع والمتلقي في التصرّف في هذه المعايير الموضوعة. في حين أن البحث الأسلوبي يقوم على مفاهيـــــم ذاتية وفردية تولي جلّ عنايتها لدور المبدع في الاختيار والتشكيل وتأسيس الخصائص الأسلوبية، كما تولي عنايتها أيضاً لدور المتلقي في استرجاع طاقات الاختيار ، وكشـــف أسرارها الجمالية, وبين هذا وذاك يتأسس النص بخصائصه وفرادته.

2 - الموضوع: المعالم والحدود :

تتأسس المعالم الكبرى للبحث الأسلوبي على علوم ثلاثة[6] : العلوم اللغوية الخالصة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس؛ فالعلوم اللغوية تبحث في الأصوات والصيغ والأنساق العلائقية ودورها في إنتاج الدلالة، في الوقت الذي نجد فيه أن البحث البلاغي أغفل قضايا لغوية مهمة مثل: المستوى الصوتي للألفاظ والتراكيب، والذي يرجع إلى طولها ووزنها وطبيعة حروفها، كما أغفل المستوى الإيقاعي الذي يعدّ سمة أسلوبية مائزة للمبدع.

إذن، فالأسلوبية – بخلاف البلاغة – تدرس الظواهـــــر اللغوية جميعها من أدنى مستوياتها (الصوت المجرد) إلى أعلاها، وهو(المعنى)، أي تدرس الظاهرة في حال البساطة وفي حال التركيب، كما يمكن أن تدرسها في حال الإمكانات التي تتيحها اللغة نفسها (الكلام)، أوفي حال الإمكانات الاستبدالية المحتملة للاستعمال اللغوي (الأداء)[7]. أما البلاغة فهي تقتصـــر على دراسة الإمكانات التعبيرية في اللغة من جهة قواعدها. في حين «أن موضوع البحث في علم الأسلوب هو أنواع الأقوال، ولا سيما النوع الفني، أو الأنواع الفنية. فهو يتحرك على مستوى بين اللغة كنظام عام ومجرد, وبين الأقوال كوقائع جزئية خاضعة لشتى العوامـــــل المحيطة بالاستعمال اللغوي»[8].

أضفْ إلى ذلك أن موضوع البلاغة يقتصـــــر على معالجة نوع واحد من القول، أو الكلام، وهو الكلام الأدبي، في حين أن موضوع الأسلوبية يعالج كل أجنـــاس الكلام، وما النص الأدبي إلا نوع واحد من جملة أنواع الكلام.

ثم يأتي علم الاجتماع وعلم النفس الذي يدرس الحالة النفسية والاجتماعية للمبدع،

وانعكاسات هذه الحالة على تشكيلاته اللغوية، وهذا كله يدفع «علم الأسلوب إلى توسيـــع مجاله من (تحليل) الأساليب اللغوية، أو الأدبية منها خاصة إلى (تفسير) النصوص الأدبية، أو بالأحرى وضع هذا التفسير – الذي لا يمكن في الواقع أن يخلو من أي تحليل أسلوبي خلواً تاماً – على أسس علمية دقيقة مستمدة من نظرية المعرفة من ناحية ومن سيكولوجية القراءة من ناحية أخرى»[9].

أما المعالم الكبرى للبحث البلاغي؛ فهي بدورهـــا تقوم على علوم ثلاثة[10] ، وهي: علم المعاني؛ وهو العلم الذي يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال، ثم علم البيان الذي يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه، وأخيراً علم البديع الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقية على مقتضى الحال ووضـــوح الدلالة.

هذه هي المكونات الكبرى للبلاغة العربية، وهي كمـــا هو واضح «مخصوصة بمعرفة أحوال اللفظ العربي ووضوح دلالته على اعتبار أن الوضـــــوح لا القوة هي القيمة المثلى للمحسنات التي تضاف لهذا اللفظ العربي»[11]. أضفْ إلى ذلك أن هذه العلوم الثلاثة لم تتحدْ أو تتلاقَ في إطار نظرية كلية يفيد بعضها من بعض، بل ظلت معطيات كل علـــم مستقلة عن معطيات العلم الآخر، وظلت – كما أشير – مقصورة على دراسة (نحو الجملة)، ولم ترقَ إلى دراسة (نحو النص)، كما هو الحال في الأسلوبية، ناهيك عن إهمالها الشديد للحالة النفسية والاجتماعية للمتكلم، وما قد تولده هذه الحالة من آثار ذات دلالة على منجزه الأدبي، ومن هنا وُسمت البلاغة العربية بالنقص والقصور عن الإحاطة بكل أبعاد العملية الإبداعية، رغم ما قدمته من مقومات للدراسة الأدبية الناجحة، لكن هذه المقومات ظلت متنائية ومتباعدة، ولم تتح لها فرصة الحوار والتلاقي المخصب.

أضفْ إلى ذلك كله أن هذه المقومات قد وجهـــت أحياناً «توجيهات نفعية بعيدة عن مراميها العلمية الأصلية التي كان عليها أن تخلـــص في التوجه نحوها، فهي قد نشـــأت في غير أهلها فأرادوا بها غير طريقها، ثم رمت بها الأحداث بين مَنْ ألبسوها غير زيّها، وكلّ يروم بها خدمة غرضه لا غرضها، ويسميها المنتفعون بها على حسب ما يودون لنفعهم، وتجـــــد من هؤلاء متكلمين ولغويين وكتّاب دواوين ومفتونين بالمنطق ومبهورين بالجدل ومفسرين تختلف مذاهبهم، وتختلف تبعاً له تأويلاتهم البلاغية»[12].

غير أنّ أخطر هذه التوجيهات النفعية يظهـــر من خلال تأثّر البلاغة الشديد بعلمي النحو والمنطق، بخلاف الأسلوبية التي ظلت مأخوذة بهاجس الذاتيـــة والوجدانية والحالة النفسية والاجتماعية، وأثرها على الاختيارات اللغوية.

المتأملُ في البلاغة العربية يلحظ انعكاسات الآثار السلبيـــة لعلميّ النحو والمنطق، من خلال أهم الظواهر التي درستها البلاغة، وهما ظاهرة (خـــلاف مقتضى الظاهر)، وظاهرة (الوضوح)[13]. وفي تناول الظاهرة الأولى نلحظ جناية علم النحو على البلاغة، وذلك حين يدخل الأصل النحوي في البلاغة، فإنه يدرس تحت ظاهرة (خلاف مقتضى الظاهر): إخـــراج الطلب

مخرج الخبر، وعكس ذلك، أو إحلال الفعل المضارع محـــل الفعل الماضي، وما إلى ذلك. وهنا يلحظ أن الدرس يركز على الجانب النحوي أكثر من تركيزه على الجانب البلاغي، وذلك أن مثل هذه الاستعمالات النحوية مألوفة لدى الناس وجارية في لغتهم، فلا خصوصية أسلوبية في استخدامها، ولا غاية جمالية تؤديها، أو قيمة تأثيرية تحققها.

آية ذلك أنّ الدراسة البلاغية لظاهرة خلاف مقتضى الحال وجّهت توجهاً نحوياً ينأى عن الدراسة البلاغية الخالصة، ولو أنها لم توجّه هذا التوجّـــــه النفعي لوجدت فرصتها في الدراسة البلاغية الخالصة من باب ما تسميه الأسلوبية بـ(كسر بنية التوقع)، أو(صدم المتلقي بالانتظار الخائب)، أو على حدّ تعبير ريفاتير (عنصر المفاجأة)[14].

أما فيما يتصل بظاهرة الوضوح، فيلحظ جنايــــة علم المنطق على البلاغة العربية, حيث ظل المنطق، لا سيما المنطق الأرسطـــي، هو الأساس المنهجي للبلاغة العربيـــة عامة, وهو الضابط لتصنيف علومها، وقصر فنونها وتعريفها وتحديد أنواعها[15]. ولعلّ سيادة هذا الاتجاه المنطقي على التفكير العلمي في البلاغة العربية يردّ أساساً إلى اتجاه الجهد البلاغي إلى خدمة (الخطابة) أكثر من اتجاهه لخدمة الشعر. ومن هنا اهتمت الخطابة بالحالة العقلية للمنشئ أكثر من اهتمامها بالحالة النفسية والوجدانية له، لذا جاء اهتمامها الشديد بقضية الوضوح. والوضوح مفهوم عقلي صرف يكاد يكون مقطوع الصلة باللغة الطبيعية، وهو عند السكّاكي: معرفة الدلالات الوضعية أو المطابقة للألفاظ[16]. أما الوضوح في غير ما وضعت له الألفاظ؛ فمعناه سهولة الانتقال من معنى الكلمة الحرفي أو المطابق إلى معناها المقصود، نحو قولك: جاء القمر، إذا فهم أن شخصاً معيناً هو الذي جاء.

آية ذلك أن هذا التوجيه المنطقي للبلاغة لا يخدم الغاية البلاغية الخالصة؛ لأن الغاية البلاغية لا تتجه للوضوح والتقرير، بل تتجه للإيحـــاء والتلميح، وبذلك فالوضوح ليس هو مقصود البلاغة بعينه، بل إن مقصودها هو(الخفاء)، فكلما كان الكلام خفياً في الدلالة كان أبلغ، «فالخفاء إذن - لا الوضوح - مبدأ بلاغي يماثل في اتساع مجاله (خلاف مقتضى الظاهر)، ويمكن القول: إن المبدأين يلتقيان في معظم الأحيان، إنْ لم نقل إنهما يتطابقان، بمعنى أنهما يعبران عن ظاهرة واحدة، شعر بها السكّاكي وأتباعه، وإنْ كانوا قد اعتمـــدوا الأول في دلالة التركيب، واعتمدوا (نقيض) الثاني في دلالة المفردات»[17].

هكذا, يتضح أن ظاهرة خلاف مقتضى الحال، وظاهرة الوضوح هما أهم الظواهر التي تناولها البحث البلاغي الذي ظل مأخوذاً بربط اللغة بالواقع، ومن ثم ظلّ موضوع علم البلاغة يدور حول الإفادة بوصفها الأصل والمراد، ثم ما يتصل بهـــا من وسائل الاستحسان بوصفها فرعاً تزيينياً مضافاً إليها إضافة، ومن هنا ظلـــت السمة الموضوعية، أو اللاشخصية للبلاغة العربية هي السمة اللافتة.

أما ظاهرة الانحراف[18] -على تعدد مفهومات الانحراف, واختلاف أشكالـــه - فهي أهم الظواهر اللغوية التي تناولها البحث الأسلوبي، وتكمن قيمة الانحراف هنا في قدرته على التعبير عن الشخصية وتجسيد تصوراتها تجسيداً جمالياً مؤثراً، من هنا يظهر اتجاه الأسلوبية نحو

الذاتية والخصوصية الفردية؛ سواء للمبدع الذي يستخدم اللغة استخداماً خاصـاً، ويتخذ من الانحرافات اللغوية حيلاً لغوية لكسر بنية توقع القارئ، وذلك عندما يخالف الطريقة المتوقعة في التعبير فيفْجُؤُ المتلقي بما لا يتوقع، أم للمتلقي الذي يسترجع اختيارات المبدع، ويرصد ثنائية (المعيار والانحراف) في النص. فالمتلقي هو الذي يحدد الانحرافات اللغوية أثناء عملية التلقّي؛ فما يجده متلقٍ انحرافاً، قد يجده سواه معياراً. إذن فهي قضية نسبية، تنأى عن الموضوعية وتعانق الذاتية.

خلاصة الأمر أن موضوع الأسلوبية هو كيفية التعبير وكيفية التلقّي، وهذه الكيفية تقتضي بحثاً في التشكيلات اللغوية وانفتاحها خارج اللغة على كينونة في الغياب تمتدّ أطرافها بين عوالم مختلفة تشكّل الذات والمجتمع أهم أركانها. في حين أن موضوع البلاغة يظل يدور حول الإفادة التي يحققها اللفظ العربي وأحواله ووضوح دلالته لا قوته أو جماله أو تأثيره، بل إقناعه وتقرير لغته للواقع الموضوعي، سواء أنبع هذا اللفظ من علم المعاني أم علم البيان أم علم البديع، فكلها تصبّ في هذه الغاية وترمي إليها.

3 - المنهج والرؤية :

يلحظ المتأمل في البحث البلاغي والأسلوبي أن ثمة فروقاً عدّة تتراءى بين هذين البحثين، يمكن ردّها إلى طبيعة منهج البحث والرؤية في كليهما، إذ إن البلاغة القديمة غلب عليها المنهج المعياري، في حين غلب المنهج الوصفي على الأسلوبية الحديثة. ولعلّ اختلاف المنهج هذا ينبع بدوره من اختلاف رؤية الإنسان بين القديم والحديث للغة والإبداع والوجود بشكل عام، «والواقع أن رؤية الإنسان الحديث تختلف عن رؤية سلفه الذي كان مقيداً بمجموعة من القواعد المنتظمة التي تمثل ثقافة عصره وفكرته عن الإبداع الأدبي واللغوي. وإذا كان العالم القديم يعيش في عالم مخلوق تخضع فيه الأشخاص والأشياء لمراتب ومقولات تتصل بالعقل والحق والخير والجمال وغيرها من المثل الأفلاطونية، فإن العالم الجديد قد ألغى كل هذه المطلقات، وحوّلها إلى خلق جديد خاضع للتجربة، ففقدت البلاغة حقوقها، ونزلت عن عرشها، ودمرت قواعدها وقوانينها النموذجية بعد أن تغيرت نظرة الإنسان إلى المجتمع والحياة والكون»[19].

يستنتج من هذا أن اللغة كانت في مفهوم البلاغة القديمة انعكاساً في الذاكرة الإنسانية لشكل خارجي ثابت، فضلاً عن تلك الرؤية التي تحيطها بهالة من القداسة, وتعدّ استعمال الإنسان لها تشويهاً لقدسيتها، غير أن هذه الرؤية للغة قد تغيرت, وتحوّلت اللغة في ظل الرؤية الحديثة إلى أداة للتعبير عن تجربة حسية للإنسان، وأصبحت وسيلة لتجسيد هذه التجربة تجسيداً جمالياً موحياً، وهذا يلتقي تماماً مع مضمون عبارة بيفون: الأسلوب هو الإنسان نفسه، أي الأسلوب يحمل خصائص الإنسان ويصور أفكاره.

آية ذلك كله أن «منحى البلاغة متعال، بينما تتجه الأسلوبية اتجاهاً اختيارياً، معنى ذلك أن المحرك للتفكير البلاغي قديماً يتسم بتصوّر (ماهيّ) بموجبه تسبق ماهيات الأشياء وجودها، في حين يتسم التفكير الأسلوبي بالتصوّر الوجودي الذي بمقتضاه لا تتحدد للأشياء

ماهيتها إلا من خلال وجودها، لذلك اعتبرت الأسلوبية أن الأثر الفني معبر عن تجربة معاشة فردياً»[20].

كانت البلاغة في الأصل فناً لتأليف الخطاب، ثم انتهت إلى احتواء التعبير اللساني كله. غير أن هذا الوضع المميز للبلاغة لم يعمّر طويلاً. إذ سرعان ما فقـــدت البلاغة هدفها النفعي المباشر، كما أنها لم تعد تدرس كيفية الإقناع واكتفت بصياغة الخطاب الأدبي الجميل، بل لم تعد تعمل إلاّ في حدود خصائص التعبير اللغوي للنص[21].

وفي تفصيل هذا الإجمال يقال: إنّ البلاغـــة العربية بدأت في مقارباتها الأولى للنماذج الشعرية الراقية بداية وصفية[22]، عندما راح البلاغيون العرب يحللـــــــــون هذه النماذج ويستخلصون خصائصها وسماتها اللغوية والجمالية، كما تراءت لهم، ومع تقدم الزمن وتوسع دائرة البحث وتشعّب فروعه وانفتاح العرب على الثقافات الجديدة بدأت البلاغة العربية تنحرف عن مسارها الجمالي وصيغتها التي استهلت دراستها بها إلى بحث قضية إعجاز القرآن الكريم، بما يتعالق بهذه القضية من أبعاد منطقية وفلسفية جعلت الجمال البلاغي جمالاً معقداً. وقد خلصت هذه الدراسات البلاغية القديمة إلى استخلاص معايير وقواعد جمالية مستمدّة في مجملها من القرآن الكريم، ومن النماذج الشعرية والنثرية الراقية، وتتسم هذه المعايير والقواعد بصيغة شمولية لا تكاد تفرّق بين طبيعة الجمال في النص القرآني، أو طبيعته في الشعر أوفي النثر، وأصبحت هذه المعايير أنماطاً جمالية مسبقة وثابتة، وفي ضوئها يقاس الإبداع قرباً أو بعداً، وهي صالحة لكل زمان ومكان، لا يؤثر فيها الذوق الشخصي ولا التغيرات الطارئة على الفن، ذلك بحسب أن هذه المعايير مستخلصة من القرآن الكريم بوصفه صالحاً لكل زمان ومكان. وهذا قياس خاطئ، إذ لا يجوز موازنة صنيع أهل الأرض بصنيع الباري عزّ وجل، ينضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم كتاب تعليمي لا يهدف إلى المتعة الجمالية الخالصة، كما يهدف الأدب لذلك مثلاً. والتعاليم التي تنظّم أمور البشر تصلح لكل زمان ومكان بوصفها موضوعة من لدن خالق البشر العالم بطبائعهم وأحوالهم. أما المتعة الجمالية فتظلّ متغيرة ومرهونة بظروف كل عصر والحالة النفسية والشعورية للمتلقي.

أما فيما يتعلق بالمعايير المستخلصة من النماذج الشعرية والنثرية الراقية؛ فهي بدورها (معايير ناقصة) ولا تنطبق إلاّ على ذوق عصرها وأهله، إذ إن هذه المعايير لـــــم تستقرئ كلَّ الأدب في زمانها، ولكنها استقرأت مجموعة من النصوص الشعرية والنثرية التي عدّها أهل زمانها نماذج راقية حسب. فالاستقراء لم يكن دقيقاً وكافياً في الوقت نفسه، من هنا فإننا لا نستهجن قول مَنْ قال: إنّ الأمر وصل بالبلاغيين القدامى إلى «افتراض وجود نماذج لقاعدتهم في نصّ من النصوص إذا أعوزهم الوجود الحقيقي له، أو ربما حاولوا صياغة نصّ يحمل الخاصة التي يريدون الاستشهاد بها على قاعدتهم، وهذا كله جعلهم يحمّلون فنـــون القول ما لا تحتمل من صورهم البلاغية «[23].

هكذا, فالبلاغة علم معياري يدرس الأدب طبقاً لمعايير موجـــــــودة قبل وجود العمل الأدبي نفسه، وهي في صورة مسلمات واشتراطات ترمي إلى هدفين معاً؛ يتمثل الأول في تقويم

العمل الأدبي قبل خلقه، ويتمثل الآخر في تقييم العمل بعد خلقه. ومن هنا ظلت البلاغة علماً معيارياً يرسل الأحكام المعيارية التقييمية، كما يرمي من جانب آخر إلى هدف تعليمي. فالبلاغي عالم في البلاغة يطمح في انتقال علمه إلى تلاميذه، ومن ثم تطبيق هذا العلم على الأدب. وفي المقابل نجد أن الأسلوبية علم وصفي غير معياري، لا يصدر أحكاماً تقييمية: مدحاً أو قدحاً، كما أنه علم لا يسعى إلى أية غايات تعليمية. فالأسلوبية لا تنطلق من تصورات جاهزة أو معايير سابقة على العمل[24]. بل يبدأ عملها بعد وجود العمل، ويكون العمل ذاته – لا سواه – مصدر الخصائص الأسلوبية ومنبعها.

من هنا تظل الأسلوبية ذات اتجاه وصفي اختباري، يختبر الظاهرة الإبداعية، ويحاول تعليلها بعد أن يتقرر وجودها. فالنص سابق على أي شكل أو خاصية معينة. وقراءة النص هي العملية الوحيدة التي تكشف عما يعتوره من خصائص أسلوبية، ولا تكتفي القراءة الأسلوبية للنص برصد الأشكال التعبيرية فيه، بل قد تتجاوزها إلى الكشف عن تصورات النص المتكتمة على نفسها في كينونته اللغوية والجمالية، وهذه القراءة لم تكن تمارسها البلاغة القديمة. من هنا جاءت الأسلوبية وغطت هذا النقص فيها. فالقراءة الأسلوبية تضاعف من فهمنا للنص بما تقدمه من وسائل وإمكانات تركز على طبيعته اللغوية ومواجهة هذه الطبيعة للمبدع مع ناحية، وللقارئ من ناحية أخرى، أي أن الأسلوبية تبحث أركان العملية الإبداعية الثلاث: النص والمبدع والمتلقي، أي تبحث في كيفية صياغة الظاهرة الإبداعية، وذلك عندما تفكك الظاهرة الإبداعية لاستخلاص خصائصها، على عكس البلاغة القديمة التي لها قوانينها المسبقة ومعاييرها الثابتة وأشكالها البلاغية الجاهزة، وجلّ ما تفعله رصد هذه الأشكال الجاهزة في النص بوصفها طرقاً مختلفة للتعبير عن نية المبدع تبعاً لاختلاف مقتضيات الحال، وهذا قد يتقاطع في جانب مع الأسلوبية، لكنه يتفارق عنها عندما لا تستطيع أن تخرج هذه الطرق المختلفة للتعبير عن الإمكانات الثابتة المتاحة للغة العربية نفسها[25]. فالبلاغـــة مثلاً تقف عند ظاهرة التقديم والتأخير، لكنها ترصد هذه الظاهرة في الشعر كما في النثر، ولا تلتفت إلى خصوصية كل فن منها، ولا إلى أثر الزمن على هذه الظاهرة، وكيف أنها تكثر في فن أو في عصر، وتقلّ في سواه، أي أن البلاغة تنظر إلى اللغة بوصفها كينونة ثابتة مقدسة منبتة تماماً عن أثر الزمان والمكان ونفسية المبدع وظروفه الاجتماعية.

في حين تقرّ الأسلوبية بأثر الزمان والمكـــان ونفسية المبدع على اللغة، وما توفره من إمكانات لغوية تتيح فرصة الاختيار للمبدع والمتلقي معاً، بحيث ينتقي منها ما يراه أكثر تجسيداً لتجربته وتصويراً لأبعادها الجمالية، وبالتالي تصبـــح الأشكال البلاغية أو التعبيرية المختلفة في النص إمكانات لغوية متحققة فيه يمكن رصدهـــا وتحليل روابطها الداخلية والسياقية لاكتشاف النظام العام في النص، ومن ثم اكتشاف طاقاته الفنية والجمالية المتكتمة على ذاتها غاية التكتم.

إذن، فالأسلوبية علم لغوي حديث ينظـــر للغة بوصفها كائناً حيّاً متغيراً، لذا فهو «إذ يسجل الظواهر ويعترف بما يصيبها من تغيير ويحرص فقط على بيـــان دلالاتها في نظر قائليها

ومستعملها أو قارئها فطبيعي أن لا يتحدث عن صحة أو خطأ»[26].

4 - النّــــص :

يشكّل النص بؤرة خلاف إجرائي بين البلاغــــة والأسلوبية؛ فالأخيرة تنهض على وجود نص متحقق تبدأ بقراءته وتحليل وحداته البنائية والجمالية المختلفة لاستخلاص خصائصه المتشيئة فيه، فهي دراسة داخلية للنص عامة, تكشف طبيعة العناصر اللغوية التي نظمت في نسق واحد متآلف, بمعزل عن ربط هذه العناصر بسياقات خارجية ... إنها قراءة داخلية ترى النص خالقاً لجمالياته من خلال صياغته اللغوية, وهذا من شأنه أن يؤسس خصوصية لكل نص بمفرده. فالأسلوبية إذن ليست «عملية تفسير حسب، كما أنها ليست منهجاً يأتينا بما لا نتوقع، وإنما هي نظرة جمالية تتخلّق من خلال الصياغة»[27]. وهذا يعني أن القراءة الأسلوبية تتناول كلّ عناصر النص، فتحلل إشاراته ورموزه من الحرف إلى الجملة إلى النص عامة بحثاً عن التصورات المتكتمة فيه، ومن ثم استخلاص سماته الجمالية والإيحائية.

الأسلوبية لا تجزئ النص ولا تفتته، وتحاول دائماً أن تبحـــث عن العلائق الداخلية المشكّلة لنظامه الأكبر ووحدته الكلية، وما يتعاورها من أنمـــــاط أسلوبية مختلفة تشكّل في مجموعها ثنائيات المعيار والانحراف، وبالتالي يمكـــن للقارئ الأسلوبي للنص استكشاف الدلالات الجمالية والتأثيرية التي تولدها مثل هـــذه الثنائيات في بنية النص، غير أن القيمة الحقيقية للأنماط الأسلوبية في النص لا تستكنه إلاّ من خلال تصورها في ضوء البنية الكلية لهذا النص[28].

أما في الإجراء البلاغي فلا نكاد نظفر بنص متكامل خاضع للدراسة والبحث، وجلّ ما يلحظ هو عملية تفتيت لوحدة النص، تقوم على الانتخاب والاجتزاء، حيث يتمّ انتخاب البيت أو البيتين, ويجري عزلها عن كلية النص ومحاسبتها طبقاً لقواعد جاهزة ونظريات موضوعة على أسس من الصرامة والثبات، وبمقدار موافقة هذا البيـــــت أو البيتين لهذه القواعد الموضوعة بمقدار ما يستحوذ على الفن الشعري.

من هنا فإن الإجراء الأسلوبي يباين تماماً الإجراء البلاغي، إذ إن في الإجـــــراء البلاغي تغييب لكلية النص والنظرة الشمولية ليحلّ محلّها المعالجـــــة الجزئية التي تعتمد المفردة أو الجملة، وفي أكثر الأحوال البيت أو البيتين، أو كما يقال (الشاهد والمثال)، حتى في مبحث الوصل والفصل والتقديم والتأخير؛ فالإجراء لا يمتدّ إلى كلية النص، بل يقتصر على جملتين أو بيتين في أكثر الأحوال. في حين يمتدّ الإجراء الأسلوبي إلى معالجة الكلية للنص أو الخطاب أو لمجموعة نصوص, أو أعمال مؤلف معين أو مدرسة ما أو حتى عصر برمته. فالإجراء البلاغي حصر نفسه في الجملة بوصفها أكبر وحدة قابلة للتحليل، أي أن البلاغة اعتمدت على (نحو الجملة)، من هنا فإن تركيزها الشديد على الشاهد والمثال، في حين التفت الإجراء الأسلوبي إلى (نحو النص)، حين «يجري تطوير وسائل التحليل اللغوي وإرهافها ورفع كفاءتها لتكون قادرة على معالجة العلاقات النحوية فيما وراء الجملة، وعلى وصف الخواص الأسلوبية التي تحقق الاستمرارية البنيوية للنص ووسائل الربط والسبل اللغوية والمضمونية»[29].

الأسلوبية ذات نزعة بنائية علائقية تحليليـــــة، في حين أنّ البلاغة ذات نزعة تفتيتية اصطفائية، تقوم على تجزيء الظاهرة الواحدة، وغياب إدراك العلاقات النظامية بين الظواهر، «وانعدام مفهوم التحليلية في النص»[30]. من هنا يظهر كم خسرت البلاغة العربية من منافع حين أغفلت هذا الجانب, والتزمت ظاهرة الشاهد والمثال، بل وتقتصر على النماذج الراقية منها حسب، في حين أن الأسلوبية تتجه لمقاربة النصوص كلها: الجيدة والرديئة دون أن يكون مبحث القيمة لديها أصل كما هو عند البلاغة.

لعلّ هذا كله قد أتاح «للأسلوبية أن تكون وريثة شريعة للبلاغة القديمة؛ ذلك أن الأخيرة وقفت في دراستها عند حدود التعبير ووضع مسمياته وتصنيفها، وتجمّدت عند هذه الخطوة، ولم تحاول الوصول إلى بحث العمل الأدبي الكامل، كما لم يتسن لها بالضرورة دراسة الهيكل البنائي لهذا العمل، وكان ذلك بمثابة تمهيد لحلول الأسلوبية في مجال الإبداع كبديل يحاول تجاوز الدراسة الجزئية القديمة، وإقامة بناء علمي يبتعد عن الشكلية البلاغية التي أرهقتها مصطلحات البلاغيين بتعريفات كادت تطغى على كل قيمها الجمالية»[31], فالإجراء الأسلوبي إذن يبرز الوحدات الجزئية في النص بوصفها وحدات بنائية تشكّل كليّة النص وجمالياته وطاقاته الدلالية والإيحائية، في حين أن الإجراء البلاغي يغفل كليّة النصّ ويبرز الوحدات الجزئية بوصفها عناصر مستقلة دالة، وهذا أدى إلى إضعاف طاقة هذه الوحدات على البثّ والإيحاء وعدم القدرة على تحليل الدلالة الفعلية لهذه الوحدات؛ لأن هذه الوحدات وفاعليتها الوظيفية تظلّ مرهونة بموقعها من النص ودرجة كثافته ودورها في متتالياته، أي لا يمكن تحليل الوحدات البلاغية في النص لاستخلاص قيمتها الجمالية والدلالية إلا في ضوء البنية الكلية للنص, وهذا لا يتنافى مع مبدأ أسلوبي دعا إليه غراهام هوف يقوم على اختيار قطعة صغيرة من مجمل النص ودراستها وتحليل وحداتها الجزئية لاستنتاج طبيعة النص وخصائصه الأسلوبية العامة، ولكنه يتنافى تماماً مع الإجراء البلاغي الذي يختار وحدات جزئية لدراستها لذاتها دون محاولة استخلاص خصائص النص عامة، أو محاولة دراستها في ضوء وحدة النص وكليته.

الأسلوبية، إذن، حينما تنتقي قطعة من النص وتجتزؤها تحاول استخلاص نظام النص الأسلوبي عامة، فهي تفكك النص كي تعيد بناءه، لكن بعد كشف نظامه الداخلي ونسقه الأسلوبي العام. أما البلاغة فهي تجزئ النص وتفكك وحداته دون أن تحاول إعادة بنائه، أو كشف نسقه الأسلوبي، وكل ما يعنيها دراسة وحدات مختارة بمعزل عن سياقها العام في النص.

من هنا ظلت النظرة البلاغية للنص نظرة تجزيئية أحادية الرؤية، لم تحاول أن توحّد العلوم البلاغية في إطار نظرة كلية شمولية يفيد بعضها من بعض، فعلم المعاني مثلاً يتناول بنية التركيب، وعلم البيان يتناول تحليلات المجاز، أما علم البديع فيتناول تحديث الصياغة وزخرفتها. فهذه العلوم الثلاثة ظلت منفصلة ولم يتح لها فرصة التلاقي في إطار واحد مخصب يفيد في تحليل شمولي يتناول بنية النص عامة، وقد ظلّ التركيب اللغوي هو محطّ الاهتمام

لدى البلاغة القديمة يتعاوره أحد هذه العلوم البلاغية الثلاثة، فحلل كل علــــم منها هذا التركيب من جوانب عدّة، غير أنها منفصلة غير متلاقية، مثل أداء التركيب للمعنى، أو تنوّع هذا الأداء واختلاف طرقه، أو من حيث مطابقته لحالة المخاطب، أو قد تنضاف لهذا وذاك أمور تزيينية لا تتصل بالإفادة الأصلية[32].

إذاً، الإجراء البلاغي يقوم على الأشتات المبعثرة والملاحظات المتناثرة في دراسة النص، ويقف عند هذا الحد ولا يتعداه، من هنا فقد قيل: إنّ البلاغة علم نضج واحترق. والحقيقة أن علم البلاغة – كما نلحظ – قد قدم كل المقومات لإجراء تحليلي ناجح للنصوص، ولكنه لم يستغل هذه المقومات ولم يوظفها في إطار نظرة شمولية كلية تتناول وحدة النص، أو تتناول أركان العملية الإبداعية الثلاثة: النص والمبدع والمخاطب. ومن هنا نقول: إنّ علم البلاغة علم لم ينضج ولم يحترق أيضاً. فهو علم مَدعوّ للنضج في العصر الحديث، وذلك بإعادة لملمة عناصره وإعادة توظيفها وإفادتها من علم اللغة الحديث.

وإذا كانت النظرة للنص وكليته تشكّل فـــــارقاً جوهرياً بين البلاغة والأسلوبية، فإن النظرة للشكل والمضمون أو للدال والمدلول في النــــــص تشكّل هي الأخرى فارقاً جوهرياً آخر بينهما. فإذا كانت البلاغة قد اعتمدت فصل الشكل عن المضمون في الخطاب الألسني، فميزت في وسائلها العملية بين الأغراض (المضمون) والصور (الشكل) مع انحيازها – في الأغلب – إلى جانب الشكل، فإن الأسلوبية ترغب عن «كل مقيـــــــاس ما قبلي, وترفض مبدأ الفصل بين الدال والمدلول، إذ لا وجود لكليهما إلاّ متقاطعين ومكونين للدلالة، فهما بمثابة وجهي ورقة واحدة «[33]، فما الدال في الأسلوبية إلا كيفية محتملة لتشكيل المدلول، وما المدلول إلا صورة لغوية قابلة للاستنطاق والبث عند عرضها على المخزون الاستبدالي أو الانعكاسي للمتلقي. أما البلاغة فقد قامت على ثنائية حادة بين الدال والمدلول، أو حسب مصطلحاتها, بين اللفظ والمعنى، من هنا قامت دراستها على فصل عنصري هذه الثنائية ودراسة كل عنصر على حدة، فدرست – مثلاً – الشكل من حيث ألفاظه المفردة, أو من حيث بناء هذه الألفاظ، أو درست الجملة أو ما هو بحكم الجملة، ومن جانب آخر درست المضمون؛ فدرست ما يهتم بصلة اللفظ بمعناه، وما يترتب على ذلك من خروج هذا المعنى عن حدوده التي وضعت له، أو بمعنى آخر انحراف المعنى عن اللفظ كأن لكل صورة لغوية ارتباطاً جذرياً بصورة معنوية محددة لا تفارقه، ناسية أن السياق الفني يفرّغ الألفاظ من دلالاتها المعجمية ويكسبها دلالات طارئة مؤقتة.

كذلك، فقد درست البلاغة صلة الجملة بمعناها, وصلتها بما قبلها وما بعدها، كما نلحظ في مباحث الوصل والفصل وفي جهود عبد القاهر الجرجاني، لا سيما من خلال نظريته في النظم، غير أن مباحث الوصل والفصل ونظرية النظم قد اقتصرت على بحــــــث الجملة والجملتين، أو البيت والبيتين من الشعر، ولم ترتق إلى بحــــــث كلية النص، أو لم تحاول أن تستخلص من هذه الجزئيات نظاماً شاملاً يسود في النص عامة. ولو أن نظرية النظم رامت هذا الهدف وسعت لتطبيقه لغيرت وجه البلاغة العربية وتعانقت مع أكثر المدارس الألسنية

الحديثة التي درست الأدب. «ويعد بعض الدارسين هذا الفـــارق بين البلاغة والأسلوبية فارقاً في الحقيقة بين العلوم القديمة والعلوم الحديثة، حيث أن أهم ما يميز العلوم القديمة من الحديثة ليس هو التوافق في بعض الملاحظات، ولا الحدس في بعض النقاط، أو الإحساس بأهمية الموضوعات، وإنما هو الفرق بين الأشتات المبعثرة والملاحظات المتناثرة من ناحية وبين إقامة نظام شامل على أسس منهجية ملتزمة، يؤدي إلى نتائج يقينية ويفيد من المستحدث من المعطيات العلمية من جانب آخر»[34]، وهكذا فقد فصلت البلاغة الدال عن مدلوله، أو الشكل عن مضمونه، وعالجت كل طرف على حدة، بحسب أنه يوجد لكل طرف استقلال تام عن أخيه، ووضعت الأسس والمعايير لكل طرف، وقاست مدى انحرافه عن هذه الأسس والمعايير الثابتة، في حين أن الأسلوبية رأت أن الدال والمدلول شيئاً واحداً لا يمكن الفصل بينهما، وأن الدوال حينما تصبّ في السياق الأدبي، فإنها تفرّغ من مدلولاتها المعجمية، وتكتسب مدلولات جديدة طارئة، بل إنها مدلولات مرجأة تظل عائمة في أفق النص تؤشر على كينونة غياب خصبة من الإيحاءات يؤسس ملامحها كل متلق طبقاً لأفق توقعه الخاص.

إنّ هذا الفارق الجوهري في نظرة كلٍّ من الأسلوبية والبلاغة للنص يترتب عليه فوارق كبيرة في التحليل، وطرق تناول النص نفسه عند كلّ من الأسلوبية والبلاغة، «وذلك للتباين الكبير في معالجة كل منهما للتوظيف اللغوي في النص الواحـــــــد، وعلاقات هذا التوظيف اللغوي مع واقع التلقي... هذا التوظيف اللغوي يعالج في الأسلوبية المفردات والجمل والمقاطع والنصوص معالجة تكوينية، سياقياً ونفسياً واجتماعياً. ولكنه في البلاغة يعالجها معجمياً ونحوياً وتركيبياً وبيانياً في صحتها وفصاحتها وإدلالها واقتضائها للحال»[35]. ومردّ هذا – كما أشير سابقاً – إلى اختلاف النظرة للنص عند الأسلوبية والبلاغــــة؛ فالأولى تقوم على تحليل نص متحقق بكل عناصره اللغوية والاجتماعية والنفسية، من هنا فمن الطبيعي أن تحلل كل هذه العناصر في ظلّ رؤية تكاملية ترى أن لكلّ عنصر من هذه العناصر دوره الفاعل وعلاقته المتبادلة مع غيره من العناصر، وأن كل هذه العناصر تتضامّ في بنية لغوية متآلفة تشعّ بكل مكونات النص ودلالاته الجمالية والتأثيرية.

من هنا فتحليل النص يرتكـــــز في الأسلوبية على البحث عن خصائصه الأسلوبية الموظفة توظيفاً قصدياً لتأسيس دلالات جمالية وتأثيرية متنوعة، وهذه الخصائص لا تعتمد إلا إذا تبيّن دورها في بناء طاقة النص الجمالية والتأثيرية، لذا فهي لا تأتيه من الخارج ولا وجود لها إلاّ في النص نفسه الذي يشع بها ويكشف عن ملامحها، لذا فهي ليست لها معايير موضوعة سلفاً، وإنما تتخلّق في النص نفسه، وتوظف توظيفاً قصدياً متعمّداً بوصفها جملاً لغوية تعمل على جذب انتباه المتلقي وإخصاب طاقة النص التأثيرية والجمالية، أوهي خصائص أسلوبية معينة يلحظها المتلقي ويحدد ملامحهـــــــا وأنماطها بمقدار ما لديه من مخزون انعكاسي أو إمكانات استبدالية تتيح له التفاعل الحيوي المتبادل مع التشكيلات اللغوية المختلفة في النص.

وإذا كان التحليل الأسلوبي ينهض على الخاصية الأسلوبية المتخلّقة في النص نفسه

لحظة إنشائه بوصفها بنية داخلية تتخلّق فيه بشكل طبيعي مع بقية عناصره، أو حيلة لغوية يلحظها المتلقي, فإن التحليل البلاغي ينهض على البحث عن (الفن البلاغي) في النص بوصفه زخرفاً أو زينة مضافة إلى النص إضافة، سواء أُخذ هذا الفن البلاغي، أو الشكل البلاغي، من أحد علوم البلاغة المختلفة: علم المعاني أم علم البيان أم علم البديع[36]. أي أن التحليل البلاغي يبحث عن أشكال فنية (بلاغية) قارّة وموجودة سلفاً ولها معاييرها وتعريفاتها ومقاييسها المتعارف عليها خارج النص. وما نجاح المبدع إلا بمقدار قدرته على الإحاطة بها وتوظيفها طبقاً لمعاييرها الموضوعة سلفاً خارج النص.

من هنا كان من الطبيعي أن التحليل البلاغي لا يتناول تحليل النص عامة، ولا يأخذ باعتباره أن هذه الأشكال البلاغية إنما هي بنيات دالة في مجمل البنية الكلية للنص، من هنا نحت البلاغة لتفتيت الظاهرة الواحدة خاصة، وتفتيت بنية النص عامة، وبالتالي فقد أغفلت جوانب مهمة في تحليل النص مثل: الجوانب النفسية والاجتماعيـــــة، فهي قد ألغت وجود المبدع ونفسيته وظروفه الاجتماعية وما قد ينعكس جراء هذه العناصر من آثار على طريقة استخدامه للغة وتوظيفها توظيفاً جمالياً موحياً. لذلك فقد ظلت البلاغة مأخوذة بهاجس الفن البلاغي، أو الوسائل التعبيرية البارزة دون سواها في النص، كما أنها قصرت دراستها على تحليل الخطاب الفني دون سواه، بل تخيّرت النماذج الراقية منه حسب، وعُنيت بإرسال الأحكام التقييمية، لأن منطلقها في الأساس الإمكانات التي تتيحها اللغة نفسها للاستعمال التعبيري، ولا يعنيها الأداء الفردي للغة، كما هو الشأن في الأسلوبية التي عُنيت بالكلام والأداء معاً. فميزت بين القواعد اللغوية العامة التي تدرس الصحة والخطأ في اللغة، وبين الخصائص الأسلوبية التي تدرس جوانب تأثير اللغة على المتلقي وزيادة جماليتها وأثرها ودورها في تجسيد تجربته الذاتية والإيحاء بها.

علم الأسلوب، إذن، «يستخلص مقولاته من لغــــة محددة بشكل يستقصي جميع جوانبها ويضيفها ويرتبها على أسس لغوية حديثة تميز بين النحو والدلالـــــــة والأسلوب. أما علوم البلاغة العربية فلها منطقها الخاص وفلسفتها التي تتصل بظروف نشأتها التاريخية من ناحية وبمقولات البلاغة الأرسطية وفلسفتها التي تتصل بظروف نشأتها التاريخية من ناحية وبمقولات البلاغة الأرسطية وفلسفتها من ناحية أخرى، وهي في جملتهــــا معاييرية لا وصفية، ومنطقية لا لغوية، وعشوائية في اختيارها للعناصر التي تعتدّ بها وتقف عندها من حصيلة اللغة وأشتات الأدب، ودون تحديد للمستويات ولا تمييز بين الشعر والنثر وكلام العرب الجاري على ألسنتهم»[37].

هكذا، فقد ظلت النظرة للنص محلّ افتراق وخلاف بين البلاغة والأسلوبية؛ فالأولى ألغت وجود النص أصلاً والتفتت إلى أشتات وأمشـــــــاج متنائية فيه، وكانت أحكامها ثابتة ومسبقة لأي وجود نصي، وبالتالي فلا خصوصية ولا تفرد لأي نص، إنما هي اشتراطات ترمي لتقويم الشكل الأدبي بشكل عام قبل إنشائه ثم تقييمه بعد الإنشاء في ضوء تلك الاشتراطات المسبقة. أما الأخرى فقامت على وجود نص متحقق له خصوصيته وتفرده، وجلّ همها كشف

ملامح هذه الخصوصية ودورها في تجسيد تجربة الشاعر وتصويرها تصويراً جمالياً موحياً. فالأسلوبية لا تمارس دورها إلا بعد أن يتشكّل لديها؛ نص متكامل تحاوره وتناوره بحثاً عن خصائصه وأنماطه الأسلوبية الناهضة في إنتاج دلالاته المختلفة في ضوء وحدته العضوية.

5 - المبـــدع :

يشكّل المبدع بؤرة خلاف بين البلاغة والأسلوبية؛ ففي حين عنيت الأخيرة بالمبدع وحالته النفسية والاجتماعية[38] بوصفه أحد الأركان الثلاثة للعملية الإبداعية، لكن البلاغة قد أغفلته وأغفلت حالته النفسية والاجتماعية إغفالاً يكاد يكون تاماً, «فتمَّ إهمال حالته النفسية ووقت كلامه، ووضعه الاجتماعي الذي قد يترك آثاراً واضحة على سمات أسلوبه، نعم قد تظهر لدى البلاغيين بعض الإشارات المحدودة إلى المتكلم، كما في مباحث الالتفات مثلاً، لكن هذه الإشارات المحدودة لا تنهض دليلاً على عناية حقيقية بالمتكلم وظروفه النفسية والاجتماعية، ويرجع بعض الباحثين السبب في إهمال حالة المتكلم على الصفة الموضوعية أو اللاشخصية للبلاغة العربية، هذا جانب من القضية، والجانب الآخر هو أن الفرق بين البلاغة والأسلوبية – من الناحية التي نتحدث عنها هنا – من الطبيعي أن يكون فرقاً واضحاً شاسعاً؛ فالبلاغة أسست مباحثها ودُوّنت في فترة مبكرة جداً، حينما لم تكن العلوم الإنسانية والاجتماعية قد عرفت تطوراتها الباهرة التي عرفتها اليوم، خاصة في مجالي علم النفس، وعلم الاجتماع بفروعهما المختلفة، في حين جاءت الأسلوبية فوجدت معطيات هذه العلوم متاحة ميسورة أمامها، فكان من البديهي أن تفيد منها، وتنتج بذلك من المباحث وتبتكر من الأدوات ما لم يعرفه القدماء»[39].

فالأسلوبية نظرت للمبدع أو المتكلم بوصفه خالقاً جديداً للغة يعمل على تفريغها من دلالتها الحميمة ويحيلها إلى إشارات عائمة في أفق النص، وبالتالي فهو الذي يكسب اللغة خصائصها الجديدة في الحيز النصي، وهو الذي يصنع الخصائص الأسلوبية والسمات الأدائية لها. فالمبدع في الأسلوبية يتجاوز الإمكانات الثابتة التي تتيحها اللغة نفسها ويجوس منطقة الإمكانات الأدائية الفردية، فهو يستخدم اللغة استخداماً خاصاً يتواشج تواشجاً حيوياً مع مكوناته النفسية والوجدانية والاجتماعية، فتبدو اللغة بين يديه لغة جديدة مدهشة جاذبة لوعي المتلقي وعاملة على تحطيم بنية توقعه. من هنا تنشأ خصائص الأسلوب وسماته المميزة لكل مبدع عامة، ولكل نص خاصة.

أما في البلاغة تغيب خصوصيـــــــــــــة المبدع وعبقريته ودوره في إعادة خلق اللغة وخصائصها، وتنهض مقابلها الإمكانات الثابتة التي تتيحها قواعد اللغة حسب، فهنا تغيب عبقرية المبدع وبلاغته وتسود عبقرية اللغة نفسها وبلاغتها، لذا فالبلاغة العربية أغفلت الخصائص الأسلوبية الفردية، كما أغفلت الفروق اللغوية الناشئة عن الفروق الطبقية أو البيئية لأن قوانينها متحققة وثابتة في أثر لغوي نموذجي يعدّ أرقى النماذج اللغوية قاطبة، وهو لفظ القران الكريم الذي لا يمسه تغيير ولا تبديل ولا اختلاف؛ فهو نموذج مثال متعال فوق الزمن، من هنا ظلت أحكام البلاغة مطلقة ومتحللة من شرائطها التاريخية الخاصة بها،

بخلاف الأسلوبية التي ظلت تراعي ظروف المبدع النفسية والاجتماعية والبيئية.

الفروق في البلاغة العربية «لا تعكس فروقاً بين الشخصيات أو البيئات الاجتماعية, بل فروقاً في المستوى الفني، أي في درجة القرب من ذلك الأثر المثالي. من هذه الجهة تكون درجات الاستحسان، ولكن البون يظل شاسعاً بين ذلك المثال، الذي يجب أن نفترض فيه تمام التطابق بين الكلام المنطوق والكلام النفسي، وبين البلاغات الإنسانية مهما تكن درجتها، حيث تكون المطابقة بين (الاعتبار المناسب) أو(مقتضى الحال) وبين الكلام المنطوق جزئيه فقط، أو متحققة في جانب، دون جانب ومن هذه الجهة يكون الحكم عليها بالصحة والخطأ»[40].

كان التعبير القرآني النموذج اللغوي المطلوب مجاراته في البلاغة العربية، لذا فقد ألغيت قضية الذوق الشخصي عند البلاغيين العرب، كما نلحظ عند السكّاكي، مثلا، الذي تحدث عن قضية الذوق، ولكن الذوق عنده يساوي ذوق العصر لا ذوق المتكلم أو ذوق المتلقي، فالسكّاكي ظل بدوره مأخوذاً بهاجس المثال التعبيري الذي ينظر إلى لفظ القرآن الكريم، من هنا فقد جعل لغة الأعراب – لا لغة المولدين والعامية مرجعاً تستقى منه الأحكام البلاغية – وقد أدخل السكّاكي التفكير النحوي كجزء من البلاغة واعتمد على النحو في تحديده لها، حتى وإن كان هذا التركيب النحوي ليس له أية خصوصية. فالبلاغة عنده ليست بلاغة مستخدم اللغة، بل هي بلاغة اللغة العربية نفسها «ومثل هذه التحليلات تصنف على أنها بحث في المميزات البلاغية الأصيلة للغة العربية، والمقصود بالأصيلة هنا أنها ترجع إلى بلاغة اللغة العربية كلغة، لا إلى بلاغة مستعمل معين لها»[41], وهذا خلاف ما في الأسلوبية تماماً، إذ إن الأسلوبية تعوّل كثيراً على قضية الذوق الشخصي والاختيار والاستعمال. فالذوق الشخصي للمبدع هو أساس الاختيارات اللغوية وموجه استعمالاتها استعمالاً خاصاً. فالمبدع يختار من اللغة ما يحدس به أنه الأكثر قدرة على تصوير تجربته تصويراً جمالياً مؤثراً، دون أن ينظر إلى مثال متعال فوق الزمن، إنما هو اختيار وحدس وإسقاط يحكمه الذوق الشخصي الخاص للمبدع، فبالحدس يحدد المبدع اختياراته اللغوية، وبالإسقاط يختار لها الأشكال اللغوية الخاصة التي تتحول بدورها إلى حيل لغوية جاذبة لذوق المتلقي وانتباهه.

من هنا يظل المبدع هو صانع الخصائص الأسلوبية، وتظلّ حساسيته وقدرته على الاختيار واستعمال اللغة استعمالاً خاصاً محلّ تقدير واهتمام في الأسلوبية. فهذا الاستعمال الخاص للغة هو الذي يكشف خصائص المبدع وسماته ويصور طبيعة تجربته تصويراً جمالياً مؤثراً، من هنا فقد قيل: الأسلوب هو الرجل نفسه، لذا فلا غرو أن تحفل الأسلوبية بالمبدع كل هذا الاحتفال وتجعله أحد أركان العملية الإبداعية الثلاثة عامة، على خلاف البلاغة التي ألغت دوره وبلاغته الفردية في استعمال اللغة استعمالاً خاصاً، وعوّلت على بلاغة اللغة نفسها، وما توفره قواعدها النحوية والمنطقية من إمكانات في الاستخدام التعبيري.

ثانياً: دراسة في المؤتلف بين البلاغة والأسلوبية :

1 - لغــة الأدب :

رغم تعدد بؤر الخلاف بين البلاغة والأسلوبية، إلا أن الباحث لا يعدم أن يقع على بعض الدوائر الكبيرة التي تتقاطع فيها البلاغة والأسلوبية، أو تكادان. فهما بشكل عام تجتمعان على فحص مادة واحدة هي (لغة الأدب)، فجوهر البحث إذن في كليهما واحد، وإنْ اختلفت طريقة التناول وطبيعة الرؤية بينهما. والحقيقة أنه لا يمكن فصل البلاغة عن الأسلوبية فصلاً حاسماً، إذ إن البلاغة هي الجذور الراسخة التي نمت منها شجرة الأسلوبية بمختلف فروعها وأغصانها؛ فالتراث البلاغي القديم الهائل المتمثل في التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكناية يمكن دراسته في ضوء علم اللغة الحديث، وبيان كيفية توظيفه توظيفاً جمالياً مؤثراً في الأدب. الأشكال البلاغية القديمة كلها يمكن أن تدرس تحت جوهر أصيل في الأسلوبية هو ما نسميه الاختيارات والانحرافات، لأن هذه الأشكال البلاغية في حقيقة الأمر هي نوع من الاختيار القائم على الانحراف اللغوي[42].

2 - تعدد كيفيات القول الواحد :

وتلتقي البلاغة والأسلوبية كذلك، في تعدد كيفيات القول الواحـــــد، وتأدية الفكرة الواحدة بصياغات لغوية مختلفة لكل صياغة منها تأثيرها الخاص. وهذا مبدأ أسلوبي أصيل، غير أن البلاغة العربية لم تكن عنه بمنأى، ويمكن أن نلحظه في بعض معطيات علم البيان خاصة، «فالمبدع في مجال (البيان) تواتيه المقدرة الفنية على إيراد المعنى الواحد في صياغات متعددة، أو في طرق مختلفة، وهي طريق تتميز بالتغاير في الوضوح والخفاء والتمام والنقصان، كما تتميز –أيضاً– بارتباطها بفكرة الإرادة، أو الإفادة المتمثلة في الصياغة من خلال تداخل العلاقات بين الدال والمدلول، وما يعرض لهذه العلاقة من زيادة أو نقصان»[43].

هذا يعني أن المسافة بين الدال والمدلول يمكن أن تزيد أو تنقص بحسب قدرة المبدع على الصياغة، وتوظيف الشكل البلاغي بما يوافق العلاقات التجاورية بين الدال والمدلولات، أو يهدم هذه العلاقات ويبني بدلاً منها علاقات جديدة تكسر بنية توقع المتلقي وتفجؤ وعيه بالمتعة والإفادة. من هنا يصبح للصورة الذهنية أكثر من دال، كمـــــا يصبح لهذا الدال أكثر من مدلول، بل هي جملة من المدلولات المرجأة العائمة في أفق النص، تنفتح خارج اللغة على كينونة غياب. وهذا الفهم يتطابق تماماً مع المبادئ الأسلوبية حول العلاقة بين الدال والمدلول. وبناءً على ذلك «يمكن أن نتبين التقاء فكرة الدلالة في علم اللغة مع الدلالة في مباحث البيان، لأن أية فكرة يمكن إبلاغها بطرق مختلفة وفي صياغات متعددة، كما أن اللفظ يمكن أن يكون له أكثر من دال واحد، ولذا يؤكد السكّاكي على أن الخوض في(علم البيان) يستدعي تمهيد قاعدة، وهي أن محاولة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه أو النقصان بالدلالات الوضعية غير ممكن»[44]. فالدلالة الوضعية – كما يرى السكّاكي – غير قابلة للزيادة أو النقصان. أما الدلالة الأدبية – أي الدلالة التي تؤسسها العلائق السياقية – فهي التي يمكن أن تزيد أو تنقص بحسب قدرة السياق على ذلك. وقد اقترب السكّاكي كثيراً من

الرؤية الأسلوبية الحديثة عندما رأى أن أداء المعنى الواحد: زيادة أو نقصاناً، وضوحاً أو خفاءً. وهذا معناه أن لكل طريقة أو كيفية أداء خصوصيتها وأثرها الجمالي والإقناعي على المتلقي. وهذا مبدأ أسلوبي أصيل. ويجدر أن ننبه هنا على أن جهود السكّاكي ظلـــــت أسيرة الجملة الواحدة أو في أحسن الأحوال الجملتين، ولم تستطع مواصلة الطريق لكي تصل إلى ما وصلت إليه الأسلوبية الحديثة، من تناول كلي للنص عامة. من هنا نقول: إن البلاغة العربية تلتقي في جوهرها مع الأسلوبية الحديثة، غير أن الجهود البلاغية توقفت عند نقطة معينة، ولو كتب لها مواصلة الطريق لتمخضت عن نتائج باهرة.

3- الإقنـــــاع والإمتاع :

في علم المعاني نجد – كذلك – تقاطعاً بين البلاغـــة والأسلوبية، فعلم المعاني يتصل بدراسة الأسلوب والمعنى، وصلة هذا الأسلوب بما يعرض للجملـــــة من أحوال تطال المبنى والمعنى، كما تطال مستويي الإقناع والإمتاع فيها. من هنا يلحظ اهتمام البلاغيين العرب ببعض اللمحات الأسلوبية الخالصة، مثل اهتمامهم بالصياغة وجزئياتها، «بحيث يكون لكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام. وبهذا يرتبط المعنى بجزئيات التركيب ومواطن استعمالها، كما يرتبط بما بين هذه الجزئيات من علاقات خلفها هذا المقام»[45]، وبذلك يرتفع الكلام في باب الحسن والقبول، أو يهبط في ذلك لوروده على الاعتبارات غير المناسبة.

البلاغة العربية – كما الأسلوبية – التفتت إلى مستويين في الخطاب الأدبي: الأول المستوى الإخباري، ويتجلّى من خلال اهتمام البلاغيين باللغة والنحو. أما المستوى الآخر فهو المستوى الجمالي الذي يظهر من خلال اهتمامهم بعلم المعاني، وهذا يتصل بالجمال الأدبي أكثر من اتصاله بالمستوى الإخباري. ويتضح هذا المستوى من معالجات السكّاكي في حديثه عن الوظيفة البيانية والوظيفة اللغوية في تناوله – على سبيل المثال لفاعل (نعم وبئس) و(لا) النافية وتحولها إلى(لات)[46]. وهذا يفيد أن البلاغة العربية -كوريثتها الشرعية - رأت ضرورة تلاحم المبنى والمعنى كي يكون الخطاب الأدبي مؤدياً لوظيفته: الإقناع والإمتاع. وتلتقي البلاغة والأسلوبية – كذلك – في الهدف؛ فكلاهما تهدف إلى تجسيد المعنى وتصويره تصويراً جمالياً موحياً؛ فالأشكال البلاغية المختلفة تهدف إلى التصوير والتعبير، وحتى في القرآن الكريم، فإن هذه الأشكال البلاغية تعمل على إيضاح المعنى حتى يصير ملموساً مأنوساً لدى النفس البشرية. من هنا فإن علم المعاني في البلاغة العربية يشكّل عنصراً رئيساً في تحقيق هذه الغاية, لا سيما من خلال مطابقته الكلام لمقتضى الحال، والتي تتحقق بالنظر إلى أحوال أجزاء الجملة أو الجملة نفسها، أو بالنظر إلى الجمل أو مجموعة منها، واختيار الحالة التي تتناسب مع ما أنت بصدده من معنى تريد تصويره والتعبير عنه.

من هنا فقد التقت البلاغة مع الأسلوبية في بحث جوّ المفردات اللغوية، وطبيعتها، ومقدار ملاءمتها للأغراض التي سيقت لها، وبحثت «في فهم نواحي الجمال، وفنون البلاغة في الكلام، فلم تقف عند صور الاستعارة والتشبيه وجملة فنون البديع، ولا عند صور المعاني في التركيب، وما يتعاقب على الكلمة من تعريف وتنكير، أو تقديم وتأخير، أو حذف وذكر، بل

جاوزت ذلك كله وبحثت في جوهر الألفاظ وفي مقدار وحيها إلى الذوق ومبلغ تأثيرها في النفس وإعرابها عن القصد وكفايتها في أداء الغرض»[47].

4 - التماســـك النصي :

البلاغة إذاً, قد عرضت – في جانب منها – إلى طبيعـــــة الكلمة وبنّها، لكنه عرض غير متعّمق، كما قد عرضت علاقة الكلمة بسواها من الكلمات وعلاقة مبناها بمعناها، وإذا كانت البلاغة العربية عملت على فصل المبنى عن المعنى، أو فصل الشكل عن المضمون، فإن جهود عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة تعد استثناءً واضحاً في هذا المجال، ويمكن أن نضيف إلى جهود عبد القاهر الجرجاني أيضاً جهود الجاحظ والباقلاني وابن الأثير والقرطاجني، فكلهم لهم إسهامات واضحة التأكيد على ضرورة تلاحم المبنى والمعنى والتماسك النصي الذي يتناول كل أجزاء العمل الأدبي، وينظر إليها بوصفها عناصر متكاملة. وهذا ما أطلق عليه الجرجاني تسمية (النظم)، وهو مؤشر واضح على علاقة تماس مع الأسلوبية التي لا تفصل بين المبنى والمعنى، وتؤكد أهمية التماسك النصي. ونرى أن لا سبيل لدراسة النص إلا باعتباره كياناً واحداً متلاحماً تؤدي أطرافه بعضها إلى بعض. «وتستند نظرية النظم عند الجرجاني على علمي النحو والمعاني، فاستبدال اسم بفعل أو فعل باسم أو حرف بغيره في السياق يؤدي حتماً إلى تغيير في المعنى، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، وغير ذلك مما يبحثه علم المعاني من أمور ينبغي على المنشئ مراعاتها في إنشائه.

وتلتقي نظرية عبد القاهر – كما وضحت – مع الأسلوبية في الكثير: فثمة اتفاق على أنه لا فصل بين الدوال (الشكل) والمدلولات (المضمون)، وإجماع على فكرة (تكاملية النص)، وتنبيه على أهمية المخاطب في عملية الإبلاغ»[48].

هكذا, فمفهوم النظم عند الجرجاني يطابق مفهوم الأسلوب في علم اللغة الحديث، وهو مفهوم حاول الجرجاني من خلاله دراسة طبيعة الأدب دراسة داخلية تتكئ بالدرجة الأساس على التركيب اللغوي الذي يتصل باللفظ المنطوق والكلام النفسي[49]. وينبغي التذكير هنا أن جهود الجرجاني ظلت كجهود السكّاكي تدور حول الجملة والجملتين، لكنها قدمت الوسائل الكافية التي يمكن أن تتناول كلية النص. وبناءً على ذلك يمكن القول: إنّ البلاغة العربية تمتلك الأدوات الفنية اللازمة لتناول النص كاملاً، لكن المتعاملين مع البلاغة هم الذين لم يستخدموا هذه الأدوات في هذا الاتجاه، ولعلّ هذا يعود بدوره إلى طبيعة الدراسات البلاغية القديمة التي لم تكن تتناول النصوص الأدبية بغية إيضاح كل جوانبها الفنية والجمالية دفعة واحدة، بل كانت تتناولها - في الأغلب – لأجل الاستشهاد على بعض القضايا والطروحات البلاغية المجردة، وهذا لا يستدعي تحليل النصوص كاملة[50].

5 - الاهتمام بالمتلقـــي :

يشكّل الاهتمام بالمتلقي محطة التقاء بين البلاغة والأسلوبية؛ فكلاهما تهتم بالمتلقي, وتحاول أن تقدم له النص بطريقة مقنعة ومؤثرة، وكلاهما تعتقد أن ثمة عدة طرق للتعبير

عن الفكرة الواحدة، وأن المبدع يختار ما يظنه أكثر مناسبة للتعبير عن المعنى والتأثير في المتلقي، ويتجلّى اهتمام البلاغة بالمتلقي من خلال تناولها لمفهوم مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ فالبلاغة من خلال سعيها لمطابقة الكلام لمقتضى الحال تسعى لمغازلة وعي المتلقي وجذب انتباهه. وما بحثها في أحوال الكلمة والتركيب المطابق لمقتضى الحال إلا بحث عن أكثر الطرق مناسبة لإقناع المتلقي وإمتاعه.

غير أن المتلقي في البلاغة لا يشكل إلا جانباً واحداً من الجوانب المتعددة لمفهوم مقتضى الحال، إلا أنه جانب مهم جداً قد يؤدي إهماله إلى إفساد عملية التبليغ وإلى فشل المرسِل في التوصيل[51].

أما في الأسلوبية؛ فالمتلقي يشكّل أحد الأركان الثلاثة للعملية الأسلوبية عامة أي (المبدع والنص والمتلقي)، وهو ركن هام جداً؛ لأنه يمكن أن يحدد الأسلوب ويعيد قراءة النص قراءة جديدة مخصبة، طبقاً لأفق توقعه الخاص، وقدرته على لحظ الانحرافات والاختيارات في النص. فما يراه شخص معين انحرافاً قد يراه سواه معياراً. وهكذا, فالمتلقي هو الذي يبعث الحياة في النص بكيفية تلقيه وتذّوقه له، وبقدرته على استرجاع اختيارات المبدع وكشف أسرارها الجمالية.

ويمكن أن يظهر احتفاء البلاغة بالمتلقي – كذلك – من خلال احتفائها بالمحسنات البديعية، رغم أن البلاغة اتخذت من هذه المحسنات شيئاً إضافياً «يأتي وراء الإفادة وظهور الدلالة وجودة المطابقة للمقام، وبعد مراعاة مقتضى الحال»[52]، إلاّ أن هذا لا ينفي سعي البلاغة للإفادة من المحسنات البلاغية بوصفها حيلاً أسلوبية يستعين بها المبدع، بعد تحوّلها من طبيعتها اللغوية العامة إلى خواص فردية ترتبط بكيفية التعبير، وتهدف إلى إحداث بروزات لغوية في النص لافتة لوعي المتلقي وجاذبة لذائقته الجمالية. وما تحسين الكلام وتجميله إلا بغية جذب المتلقي إليه، وبالتالي يصبح توظيف معطيات علم البديع في الصياغة الأدبية مؤشراً على عناية البلاغة الواضحة بالمتلقي.

نتائج وملاحظات :

إن الهدف النهائي لعلم الأسلوب – كما يراه علماء الأسلوب – هو: أن يقدم صورة شاملة لأنواع المفردات والتراكيب، وما يختصّ به كلٌّ منها من دلالات. ويمكن أن يقال بشيء من التسامح: إن هذا هو نفسه ما يصنعه علم البلاغة؛ فالبلاغة تتناول طرقاً متعددة في استعمال المفردات والتراكيب مثل: التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكناية، وما إلى ذلك، وببحث قيمة كل طريقة من هذه الطرق وأثرها في إقناع المتلقي وإمتاعه.

البلاغة، إذاً، لا تبعُد عن الأسلوبية كثيراً، والأسلوبية لا يمكن أن تتخلّى عن البلاغة أيضاً؛ لأن البلاغة هي الجذر الحي الذي نمت عليه فروع الأسلوبية المختلفة، لذا تظل البلاغة مشحونة بطاقات هائلة كامنة يمكن الإفادة منها في البحث الأسلوبي، لا سيما إذا أحسن المبدع إعادة صياغتها وصهرها في بنائه الأدبي، من هنا فإن الأشكال البلاغية المختلفة تصبح

لها «أهمية كبرى في النظرية الأسلوبية إذا فهمت على أنها نظام من نموذج جمالي واستدلالي يوضع تحت تصرّف المؤلف ليعطي بها تأثيراً معيناً عند جمهوره. ويعني ذلك أنها تعدّ من مجال اللغة، وأن لها تأثيراً خاصاً في تحقيق النص»[53]. فالأشكال البلاغية – إذن – تأخذ أهميتها ليس من اكتشافها في النص أو تسميتها بأسمائها، بل عندما يتمّ تصورهـــا كنظام كامل من الوسائل اللغوية الفاعلة في إنتاج النص وطاقته الجمالية والإقناعية، ولا تتحقق هذه الغاية إلا بتضامّ دور المبدع والمتلقي في نسق إجرائي واحد، حيث يقوم المبدع باستغلال هذا النظام وإعادة توظيفه في نسق علائقي يهب النص طاقاته التأثيرية، ويقوم المتلقي باسترجاع اختيارات المبدع وكشف أسرارها، وهنا تتماهى العملية البلاغية والأسلوبية في بوتقة واحدة.

آية ذلك كله: أنّ علم البلاغة قـــادر على تقديم كل المقومات لإجراء تحليلي ناجح للنصوص، ولكنه لم يستغل هذه المقومات، ولم يوظفها في إطار نظرة شمولية كلية تتناول وحدة النص، أو تتناول أركان العملية الإبداعيـــة الثلاثة: النص والمبدع والمخاطَب. ومن هنا نقول: إنّ علم البلاغة علم لم ينضج، ولم يحترق أيضاً. بل هو علم مَدعـــوّ للنضج في العصر الحديث، وذلك بإعادة لملمة عناصره وإعادة توظيفها, وإفادتها من علم اللغة الحديث.

خاتمـــة :

بات واضحاً الآن، أنه لا يمكن فصل البلاغة عن الأسلوبية فصلاً حاسماً، فالبلاغة هي الجذور التي نمت منها شجرة الأسلوبية بمختلف فروعها وفصولها. والأسلوبية بدورها هي الوريث الشرعي للبلاغة القديمة. من هنا يمكن دراسة التراث البلاغي الهائل في ضوء علم اللغة الحديث. ومع ذلك فقد انتهت الدراسة الحالية إلى أن البلاغة والأسلوبية تظل كلّ منهما تتمايز على أختها، وتتمتع بصفات وملامح تفارقية، من هنا يمكن الإشارة إلى العناصر الجوهرية التي تتبأر حولها ملامح هذا الافتراق بينهما، ويمكن تلخيصها في خمـــس بؤر رئيسة هي: المفهوم، والموضوع:المعالم والحدود، والرؤية والمنهج، والنص، والمبدع.

من جانب آخر فقد لحظت الدراسة أن البلاغة والأسلوبيـــة تتقاطعان في دوائر مشتركة، يمكن تلخيصها هي الأخرى في خمس بؤر رئيسة أيضاً هي: لغة الأدب، وتعدد كيفيات القول الواحدة، والإقناع والإمتاع، والتماسك النصي، والاهتمام بالمتلقي.

ومما لحظته الدراسة، أيضاً، أن جملة الاختلافات والتفارقات بين البلاغة والأسلوبية يمكن النظر إليها من زاوية الإجراء والتطبيق لا من زاوية الماهية والمفهوم. إذْ إنّ البلاغة العربية قد امتلكت الأدوات الفنية اللازمة لتناول النص الأدبي كاملاً، لكنها توقفت عند نقطة معينة، ولو كُتب لها مواصلة الطريق لتمخّضت عن نتائج باهرة. ولا أدلّ على ذلك من جهود عبد القادر الجرجاني في نظرية النظم خاصة، ثم جهود كل من الجاحظ والباقلاني وابن الأثير والقرطاجني، وإنْ ظلت هذه الجهود جزئية تتناول البيت والبيتين في الأغلب. وكذا ما لحظ من معطيات طرحتها علوم البلاغة المختلفة، مثل علم البديع، وعلم المعاني، وعلم البيان، غير أن معطيات هذه العلوم الثلاث ظلت منفصلة ولم تتلاق، وظل كل منها يتناول جزءاً من النص بعيداً عن كلية النص بشكل عام. وانطلاقاً من ذلك يمكن القول: إن المتعاملين مع البلاغة هم

مَنْ قصّر في استخدام الوسائل والأدوات الفنية التي وفرتها لهم البلاغة لتناول النص كاملاً.

وملاك الأمر: أن البلاغة بدأت في مقارباتها الأولى للنمـــــــاذج الشعرية الراقية بداية وصفية, لكن انشغال المتعاملين بها بقضايا أخرى، ولا سيما قضية إعجاز القرآن الكريم انتهى بالبلاغة العربية إلى معايير جمالية جاهزة مستمدة – في أغلبها – من القـــــرآن الكريم، أومن نماذج شعرية أو نثرية راقية. من هنا قيل: إنّ علم البلاغة (علم نضج واحترق)، ولكن على ضوء ما رأينا من إمكانيات فنية توفرها البلاغة يمكن القول: إنّ علم البلاغة علم بدأ أول ما بدأ بدايات موفقة, ثم توقف ولم يواصل الطريق، وبالتالي فهو علم (لم ينضج بعد ولم يحترق قط)، بل إنه قدم كل المقومات لإجراء تحليل ناجح للنصوص، لكن القائمين عليه لم يستغلوا هذه المقومات كلها، ولم يوظفوها في إطار نظرية شاملة كلية تتناول وحدة النص، أو تتناول أركان العملية الإبداعية الثلاث: النص، والمبدع، والمتلقي. إذاً فعلم البلاغة مَدعوّ للنضج في العصر الحديث، وذلك بإعادة لملمة عناصره, وإعادة توظيفها, وأفادتها من علم اللغة الحديث.

الهوامش والإحـــــالات :

(1)حول تعدد تعريفات الأسلوب انظر: شبلنر، برند،علم اللغة والدراسات الأدبية,ط1، ترجمة محمود جاد الرب،الدار الفنية للنشر والتوزيع، الرياض، 1987 .

(2) انظر: - الطرابلسي، محمـــــــد الهادي، تحاليل أسلوبية، تونس، دار الجنوب،1992: 8 ، شتريلكا، ليوزف, الأسلوب الأدبي، ترجمة: مصطفى ماهر، مجلة فصول،م5،ع1، 1984 :48 .

(3) انظر: شبلنر، برند،علم اللغة والدراســـــــــــــــــات الأدبية:109-108 .

(4) عيّاد، شكري محمد, اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلـوم، الرياض،1985 :216 .

(5) انظر المرجع السابق: 222 .

(6) انظر: - عياشي، منذر, مقـــــــالات في الأسلوبية، دمشق:74-73 ، وانظر : السيد، شفيع، الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي،ط1، دار الفكـــــــر العربي، القاهــــــــــــرة ، 1986 :189 .

(7) انظر: السعدني، مصطفى, البنيـــــــــات الأسلوبية في لغة الشعر الحديث، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1987 : 69 .

(8) عيّاد، شكري محمد, اتجاهات البحث الأسلـوبي : 212-211 .

(9) انظر: عيّاد، شكري محمد, اتجاهات البحث الأسلوبي : 212 .

(10) انظر: فضل، صلاح، علم الأسلـــــوب : مبادئه وإجراءاته، ط2, الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985 :139 .

(11) المرجع السابق : 139 .

(12) أبو العدوس، يوسف, البلاغـــة والأسلوبية, ط1, مكتبة الطلبة، اربد : 182 ، عيد، رجاء: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشاة المعارف،الإسكندرية،(د.ت) : 11 .

(13) انظر عيّاد، شكري محمد, اتجاهات البحث الأسلوبـــــــــي : 233 .

(14) انظر: المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب: نحـــو بديل ألسني في نقد الأدب, الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1977. وأيضاً نسخة دار سعاد الصباح، الكويت،ط4، 1993 : 86 .

(15) انظر: النادي الأدبي الثقافي بجدة59، قـــراءة جديدة لتراثنا النقدي, فصل: مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانيـــــــــة, 1990 : 8 .

(16) انظر عيّاد، شكري محمد, اتجاهات البحث الأسلوبي:235-234 .

(17) المرجع السابق : 136 .

(18) حول مفهوم ظاهرة الانحراف انظر:

ــ كوهن، جان, بنية اللغة الشعريـــــة، ترجمة: محمد الوالي ومحمـــد العمري، الدار البيضاء، المغرب، 1986 : 15 .

ــ عيد، رجاء, البحث الأسلوبي(معاصرة وتراث)، منشاة المعـــارف، الإسكندرية،1993 : 184،14 .

ــ عيّاد، شكري محمد: مدخل إلى علم الأسلوب، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض،1982 : 37 .

ــ ايفانكوس، خوسيه, نظرية اللغة الأدبية، ترجمة حامد أبو أحمد، القاهـــرة،1992 : 35-34 .

(19) عزام، محمد، الأسلوبية منهجاً نقدياً, منشورات وزارة الثقافة –دمشق،1989 : 38 .

(20) المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلـــوب: نحو بديل ألسني في نقد الأدب : 50 .

(21) انظر أبو العدوس، يوسف, البلاغة والأسلوبية, ط1, مكتبة الطلبـــة، اربد : 169 .

(22) عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، ط1، مكتبة لبنان، بيروت ، 1994 :259-258 .

(23) عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية : 260 .

(24) انظر: - سليمان، فتح الله، الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقيـــة، الدار الفنية للنشر والتوزيع، 1990.:27 .

- المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلـــوب: نحو بديل ألسني في نقد الأدب : 49-48 .

(25) عيّاد، شكري محمد: مدخل إلى علم الأسلوب : 45 .

(26) عيّاد، شكري محمد, مدخل إلى علم الأسلوب : 45 .

(27) عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبيـــة : 355 .

(28) حول هذه الأفكار انظر: شتريلكا، ليوزف, الأسلـــــوب الأدبي، ترجمة: مصطفى ماهر، مجلة فصـــــــــول،م5،ع1، 1984: 71, 73.

(29) النادي الأدبي الثقافي بجدة59، قراءة جديدة لتراثنا النقـــدي, فصل: مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانيـــة, 1990 : 860 .

(30) المرجع السابـــــــــق نفسه : 859 .

(31) عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية : 259 .

(32) عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية : 259 .

(33) المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب : نحو بديل ألسني في نقد الأدب : 49 .

(34) أبو العدوس، يوسف, البلاغة والأسلوبية, ط1, مكتبة الطلبـــــة ، اربد : 176 ، وبنظر : فضل، صلاح، علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاتـــــــــــه : 141-140 .

(35) أبو العدوس، يوسف, البلاغة والأسلوبية, ط1, مكتبة الطلبة، اربد : 171 .

(36) النادي الأدبي الثقافي بجدة 59، قـــراءة جديدة لتراثنا النقدي, فصل: مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانيـــــــة, 1990 : 857 .

(37) فضل, صلاح علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاتـــــه : 139 .

(38) انظر عيد، رجاء, البحث الأسلوبي(معاصرة وتراث) : 125 .

(39) أبو العدوس، يوسف ، البلاغـــة والأسلوبية, ط1, مكتبة الطلبة، اربد : 180-179 . وينظر : عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبيـــــــــة : 259 .

(40) عيّاد، شكري محمد, اتجاهات البحث الأسلوبي : 223 .

(41) عيّاد، شكري محمد, اتجاهات البحث الأسلوبي : 230 .

(42) انظر عزام، محمد، الأسلوبية منهجــــاً نقدياً : 40 . وانظر : عيّاد، شكري محمد: مدخل إلى علم الأسلـــــــــــــوب : 46-45 .

(43) عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية : 264 .

(44) المرجع السابـــــــــــــق : 264 .

(45) عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية : 262 .

(46) انظر: مفتاح العلوم /السكّاكي:112. وانظر نظرية اللغة في النقد العربي/عبد الحكيم راضي : 13 وما بعدها .

(47) خفاجي، محمد عبد المنعم،(محمد السعدي فرهود),ط1, الأسلوبيـــــة والبيان العربي،الدار المصرية اللبنانيـــــــــــــــــــــــــــــة, 1992 : 133 .

(48) سليمان، فتح الله، الأسلوبية : مدخل نظري ودراســـة تطبيقية : 30-29 .

(49) عبد المطلب، محمد، البلاغـــــــــــــــــة والأسلوبية : 260 .

(50) أبو العدوس، يوسف, البلاغة والأسلوبية, ط1, مكتبة الطلبة، اربد : 175 .

(51) سليمان، فتح الله، الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقيـــــة : 28 .

(52) عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبيـــة : 266 .

(53) شبلنر، برند،علم اللغة والدراسات الأدبية : 173 .